

من معالم المنهج التربوي عند المحدثين

الدكتور أبو بكر كافي

جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة

لقد تميز علماء المسلمين دون غيرهم بربط آصرة الأخوة بين العلم والأخلاق ولم يقطعوها، يحدوهم في ذلك وحدة الغاية والهدف بين الأمرين، إذ كل من العلم والخلق يهدف إلى تحقيق السعادة للإنسان، ولن تستطيع أمة أن ترقى بالعلم وحده، بل لابد من سياج من القيم الأخلاقية تضبط مساره، وترشد سيره، وتكبح جماحه، ولا تسأل عما يمكن أن يتسبب فيه العلم إذا تعرّى عن دثار الخلق، وقطع وشائج التربية الإيمانية، فالمدينة الغربية خير شاهد على ذلك، فلم يسعفها ما وصلت إليه من تطور علمي من تحقيق السعادة لشعبها وللإنسانية، لأن العلم عندها لم يمتزج بالتربية، ولم يتحل بالأخلاق.

لكن الحضارة الإسلامية على النقيض من ذلك تماما استطاعت أن تتمثل العلم، وتقدمه للناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم خيرا طيبا، يعم نفعه الإنسانية جمعاء، والسر في ذلك أن العلم عندها كان قرينا للخلق، فلم تنفك التربية العقلية العلمية بحال عن التربية الخلقية الإيمانية. إذ الرابطة بين العلم والأخلاق ميزة تصبغ التعليم عند المسلمين على اختلاف تخصصاتهم، ولقد كان لعلماء الحديث من ذلك أوفر نصيب، فأردت أن أبرز معالم منهجهم التربوي ضمن المطالب الآتية:

اهتمام المحدثين بالجوانب التربوية: مظاهره وفوائده.

عرض لأهم الآداب المطلوبة في الشيخ والطالب ومجلس التحديث.

استخلاص أهم خصائص المنهج التربوي عند المحدثين.

الخاتمة: وتتضمن أهم النتائج والتوصيات والمقترحات.

اهتمام المحدثين بالجوانب التربوية: مظاهره وفوائده: لقد اهتم المحدثون بالجوانب

من معالم المنهج التربوي عند المحدثين ----- د. أبو بكر كافي
التربوية اهتماما بالغا تجلّى في نواحي مختلفة رواية ودراية ورعاية، فأما الرواية فقد روى
المحدثون عشرات الأحاديث المتعلقة بالأدب والأخلاق، منهم من ضمّها ما صنّفه في السنة
عموما كأصحاب الصحاح والسنن والمسانيد وغيرها، ومنهم من أفردها بمصنّفات مستقلة،
كالإمام البخاري في "الأدب المفرد"، والحافظ ابن أبي الدنيا في كثير من أجزائه، والإمام
الآجري في "أخلاق حملة القرآن" و"أخلاق العلماء"، والحافظ أبي الشيخ بن حيان في
"أخلاق النبي - صلى الله عليه وسلم - وآدابه" وغيرهم كثير.

ولم يقتصر جهدهم على مجرد الرواية، بل أولوا هذه الأحاديث والآثار جانبا كبيرا من
البحث والفهم، والاستنباط والتفقه، مما كان ثمرته كتب كثيرة أصلت أصول هذا العلم
وقعدت قواعده، وضبطت فروعه وشوارده، وكان تركيزهم على آداب طالب العلم
والعالم، لما تكتسبه من أهمية بالغة، وهذه أهم المصنّفات في ذلك:

- المحدث الفاضل بين الراوي والواعي للإمام الرامهرمزي ت360هـ -

- الجامع لأخلاق الشيخ وآداب السامع لحافظ المشرق الإمام الخطيب البغدادي (ت363هـ)

- جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله لحافظ المغرب الإمام أبو عمر بن عبد
البر ت363هـ -

- أدب الإملاء والاستملاء للإمام عبد الكريم بن محمد السمعاني ت562هـ -

- تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم للإمام بدر الدين بن جماعة ت776هـ -

كما ضمّنه كثير من المحدثين كتبهم في علوم الحديث وأصوله، كالإمام الحاكم
النيسابوري في كتابه "معركة علوم الحديث"، والإمام ابن الصلاح في مقدمته، والحافظ
السيوطي في "تدريب الراوي"، والحافظ السخاوي في "فتح المغيّب"، والحافظ العراقي في
ألفيته وشرحها، وغيرهم كثير. (والغاية من هذه الآداب توجيه، الشباب إلى منهج السلف
الصالح، في طلب العلم، وفي كيفية التعامل مع الناس، مع مراعاة الاعتبارات التالية:
- إن العلم وحده لا يكفي في تربية الشعوب.

من معالم المنهج التربوي عند المحدثين ----- د. أبو بكر كافي
- إن التربية تحتاج إلى إعداد وممارسة، وقدوة حسنة، وهذه لا تتحقق بمجرد التلقين والوعظ.

- إن التربية تقوم على آداب تستوعب حياة الفرد في جميع أعماله وتصرفاته، وعلاقاته بالناس، ولقد استطاع المسلمون بهذه التربية أن تكون لهم شخصية متميزة عن غيرهم، كانت أكبر عامل على دخول الناس في الإسلام¹. وفيما يلي عرض لأهم هذه الآداب:

- أولاً: آداب المحدث: فمنها ما يتعلق بمقصد المحدث، ومنها ما يبين الصفات الأخلاقية، الواجب تحليه بها، ومنها ما يرجع إلى شروط أهليته، ومنها ما يخص علاقته بشيوخه ورفقائه وطلابه، ومنها ما يتصل باحترام الحديث وترتيب مجلسه. فأما المقصد: فينبغي أن تكون غاية الراوي تبليغ حديث رسول الله ﷺ ونشره فيخلص في ذلك ويتجنب الأغراض الدنيوية من حب الظهور وما ماثله ليكون عمله خالصاً لله تعالى فينفعه دنياً وآخرة، فإن هو فضل الدنيا خسرهما معاً، ونقل عن بعض السلف أنهم امتنعوا عن التحديث عندما لم تحضرهم النية² لعلمهم بما يحدثه سرد الأحاديث من خيلاء في القلب تذهب بثواب عملهم، وبإخلاص النية تحصل فضيلة التواضع فتأكد روح الإخلاص في المحدث ويزداد خوفه من الله تعالى، وتنمو علاقته بطلابه، قال مسروق: «كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعلمه»³.

وعلى المحدث أن يتصف بكل الفضائل الأخلاقية اقتداء برسول الله ﷺ وهو يروي أقواله ويتأسى بأفعاله ويعمل بها فينفعه علمه، ويتنفع به غيره، فيجمع بين نقاوة الباطن واستقامة الظاهر.

1- من أدب المحدثين في التربية والتعليم، للدكتور أحمد محمد نور سيف-ط1- دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث بدمي، 1418 هـ 1997 م، ص15.

2- تدريب الراوي 2: 147.

3- جامع بيان العلم وفضله 1: 143.

من معالم المنهج التربوي عند المحدثين ----- د. أبو بكر كافي
وأما أهلية التحديث فالسن المؤهلة لها حددها البعض بالأربعين لأنها حد الاستواء
ومنتهى الكمال وفيها مجود الرأي¹، وحددها آخرون بالخمسين لأنها انتهاء الكهولة، وهذا
التحديد ليس عاما بل لغير البارعين في علم الحديث ممن يتصدرون للتحديث ابتداء من
أنفسهم دون الشهادة لهم، وأما البارعون فيحدثون متى استعدوا واحتيج إليهم. فكثير من
السلف ماتوا في عمر متقدم ونشروا أحاديث كثيرة كسعيد بن جبير الذي قتل وهو ابن
تسع وأربعين. وإبراهيم النخعي الذي توفي وهو ابن ست وأربعين، وعمر بن عبد العزيز
الذي مات قبل الأربعين وثبتت عن جماعة من الأئمة تحديثهم مبكرا، فقد حدث مالك بن
أنس وهو ابن ثيف وعشرين، وقيل قبل ذلك، وحدث الشافعي صغيرا² وكتب الرواة عن
البخاري في سن السابعة عشرة³ ويتبين من هذا أن أهلية التحديث لا ترتبط بالسن فقط
وإنما تخضع للنضج والدرجة العلمية، وهذا يتفاوت من شخص إلى آخر فمضى شهد القوم
بكفاءة محدث أخذوا عنه.

أما سن التخلي فحددها الرامهرمزي⁴ بالثمانين بداية الهرم لمن خشي الاختلاط، ورواية
ما لم يسمعه، لأن الغالب على من بلغها اختلال الجسم والذاكرة وتغير الفهم، أما من ثبت
عقله وتحرى في الرواية فله أن يستمر، وقد حدث بعدها جماعة من الصحابة ومن بعدهم.
وحرصا على مكانة المحدث، واحترامه رأى البعض أن لا ينتصب للتحديث شخص
بحضرة من هو أولى منه لسنه أو علمه. وكان إبراهيم النخعي لا يتكلم إذا حضر الشعبي
ووصف يحيى بن معين بالحمق من يحدث بالبلدة وفيها من هو أولى منه بالتحديث⁵، وقال:

1 - المحدث الفاضل 352-353.

2 - علوم الحديث: 214-215.

3 - هدي الساري: 478.

4 - المحدث الفاضل: 354.

5 - مقدمة المعرفة لابن أبي حاتم الرازي: 286.

من معالم المنهج التربوي عند المحدثين ----- د. أبو بكر كافي
«إذا حدثت في بلدٍ فيه مثل أبي مسهر فيجب للحنى أن تخلق»¹. وامتنع أبو حاتم الرازي من
تحديث أهل طبرية لوجود دحيم² بينهم، فلما أذن له حديثهم³.

والكف عن التحديث في البلد لوجود من هو أولى لا يعدو أن يكون مجرد احترام
للشيخ ولا يمكن القول بوجوبه فإن العبرة بتوفر أهلية الحديث، فإذا ما حصلت أمكن تعدد
المحدثين، والمتبع لتاريخ الرواية والإفتاء يجد أن الأقل علما قد نشر علمه في حياة من هو
أعلم منه وأفضل، ناهيك أن بعض الصحابة أفتوا في عهده عليه السلام.

ومن الآداب الراجعة للعلاقة ببقية المحدثين أن يرشد المحدث من يسأله عما لا يعلمه إلى
من علم بالسؤال من أهل البلد، وأن لا يمتنع من تحديث أحد لكونه غير صحيح النية، عسى
أن يحمله طلب الحديث على صحتها، فمن الناس من طلب العلم لغير الله فوقه الله، ورزقه
حسن النية بعد⁴. ومن الآداب الراجعة إلى مراعاة السامعين توقي الأحاديث التي لا تحملها
عقولهم وعليه الإكثار من أحاديث الزهد ومكارم الأخلاق⁵.

ثانيا: الآداب المطلوبة في مجالس الحديث: عرفت حلقات العلم منذ عهد الرسول ﷺ
وتعددت باتساع رقعة البلاد الإسلامية، وكان لمجالس الحديث السبق في الظهور، والدقة في
الالتزام بالتراتب فنظّمها المحدثون وخصصوا من كل أسبوع أياما للإملاء، واستعملوا في

1 - علوم الحديث: 216.

2- عبد الرحمن بن إبراهيم بن عمرو الأموي الدمشقي، محدث الشام في عصره كان على مذهب
الأوزاعي وفي قضاء الأردن وفلسطين وطلب لقضاء مصر فعاجلته المنية. 245/170، الذهبي، تذكرة
الحفاظ: 2: 480.

3- مقدمة المعرفة: 361.

4- تدريب الراوي 2: 130.

5 - الباعث الحثيث: 154.

من معالم المنهج التربوي عند المحدثين ----- د. أبو بكر كاي
بعدهم يجلسون شيوخهم فيمكنون طويلا لا يسألونهم مهابة، ولا ينقطعون عن الحضور
عندهم، ووصل الأمر ببعضهم إلى أن يظلوا وقوفا يسألون الشيخ. وقف جماعة من كبار
الأئمة كأحمد بن حنبل وابن معين، وابن المديني أمام يحيى القطان يسألونه الحديث ولم
يجلسوا هيبة له. وقال البخاري في ابن معين: «ما رأيت أحدا أوقر للمحدثين منه»¹ وكان
الشافعي يتصفح الأوراق يرفق أمام مالك هيبة له².

ومنها أن لا يضجر الشيخ بكثرة الأسئلة، وكثرة الإلحاح، وأن ينشر ما سمع من
الحديث ولا يكتمه، وأن يتجنب الحياء والتكبر فالحياء سبب للتقصير والتكبر يدفع إلى
التعالي، وفي صحيح البخاري عن مجاهد «لا يتعلم العلم مستحي ولا متكبر» وفيه مدح
لنساء الأنصار لجرأتهن على سؤال النبي قالت عائشة: «نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن
الحياء أن يتفقهن في الدين»³.

فالحياء شعبة من الإيمان ولكنه ينبغي أن لا يكون دافعا للتقصير في طلب العلم، ونقل
عن كثير من أئمة الحديث قولهم «لا ينبل الرجل من أصحاب الحديث حتى يكتب عمن هو
فوقه وعمن هو دونه وعمن هو مثله» وأغلبهم نقل عن تلاميذه، وتلك أمانة التواضع، وما
يطلبه بعض المحدثين من طلابهم حفظ القرآن قبل طلب الحديث، ونقل هذا عن غير واحد
من أئمة الحديث⁴.

وأن يدل لباسه على انتسابه للعلماء وعلى جده في الطلب حكى الإمام مالك عن
نفسه قال: «قلت لأمي أذهب فأكتب العلم؟ فقالت لي أمي: تعال فالبس ثياب العلماء، ثم

1 - فتح المغيث 2: 320.

2 - تذكرة السامع والمتكلم: 88.

3 - صحيح البخاري، كتاب العلم 50.

4 - المحدث الفاضل: 203.

من معالم المنهج التربوي عند المحدثين ----- د. أبو بكر كافي
أذهب فاكتب فألبستني ثياباً مشمرة، ووضعت الطاقية على رأسي وعممتني فوقها، ثم قالت
أذهب الآن فاكتب»¹.

خصائص المنهج التربوي عند المحدثين: من خلال الآداب التي اشترطها المحدثون لنجاح
العملية التربوية، يمكن أن نبرز خصائص المنهج التربوي عند المحدثين.

شمولية المنهج: إن المنهج التربوي عند المحدثين يتسع ليشمل كل أركان العملية التربوية
من الشيخ (الأستاذ) والطالب (التلميذ) ومجلس الدرس (المحاضرة) والأدوات التعليمية
(الكتاب، المحبرة، القلم، الدفتر...) وعلاقة هذه الأركان مع بعضها البعض مما يضمن تأدية
العملية التعليمية على أكمل وجه، واكتساب العلم بأفضل الأساليب، وأكثرها نجاعة.

والناظر في كتب التربية عند المحدثين السالف ذكرها يجد أنها تشترك في تحقيق الآداب التي
ينبغي أن يتحلى بها الشيخ على مختلف المستويات:

آداب الأستاذ مع نفسه، ومع طلابه، وفي درسه.

أما بالنسبة لآداب الأستاذ في نفسه فيمكن تقسيمها إلى قسمين: آداب أخلاقية،
وأخرى مهنية. فالآداب الأخلاقية التي يجب أن يتحلى بها الأستاذ عند المحدثين كثيرة، فمنها
التحلي بالوقار، والخشوع، والتواضع، والخضوع لله ومراقبته في السر والعلن، والزهد في
الدنيا، والمحافظة على شعائر الإسلام، وعلى المندوبات الشرعية قولاً وفعلاً، ومعاملة الناس
بمكارم الأخلاق، كطلاقة الوجه، وكظم الغيظ، والإيثار، وغيرها.²

وأما الآداب المهنية، فهي جملة من القواعد الصارمة التي ينبغي أن يلتزم بها الأستاذ حتى
يتحقق المهدف المرجو من العملية التعليمية والتربوية، لأنه لا يكفي الجانب الأخلاقي وحده
بل لا بد أن يقترن به التحصيل العلمي الذي يؤهل صاحبه لممارسة التعليم، فمن ذلك

1 - الإلماع: 47.

2- انظر تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم، تحليل وتحقيق الدكتور عبد الأمير شمس الدين -

ط1- دار إقرأ بيروت سنة 1404 هـ - 1984 م، ص 75-85.

من معالم النهج التربوي عند المحدثين ----- د. أبو بكر كافي
المواظبة على التحصيل المعرفي، وشغل الوقت كله بالحفظ والبحث والتصنيف، وهذا ما
يمكن أن نسميه باصطلاح العصر "التكوين المستمر" فلا يجوز للمعلم الكف عن البحث،
والتوقف عن الاستفادة¹.

ربانية المصدر والأهداف: إن أدب التربية عند المحدثين مستمد من كتاب الله، وسنة
النبي - صلى الله عليه وسلم - وآثار الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فليست مزاجاً أو أهواء
تليها العادات والتقاليد الفاسدة، أو الفلسفات البشرية المتناقضة.

والتربية عند المحدثين تقوم على مبدأ الاعتدال، وعدم الشطط، أو الإفراط أو التفريط،
كما أراد الله لهذه الأمة أن تكون أمة وسطاً. وبذلك استطاعت أن تخضع شعوب الأرض
بحضارتها المختلفة، لمفاهيمها السمحة السهلة البعيدة عن التعقيد والالتواء².

ومن خلال غرس النية الصالحة للمعلم والمتعلم، وتصحيح مقاصد كلا منهما، والزهد
في الدنيا، والبعد عن حطامها وشهواتها، يرسم المحدثون أهدافهم بدقة، وهي أهداف نبيلة،
سامية المقصد، تحقق رضوان الله في الآخرة، والسعادة في الدنيا.

الدقة والتنظيم والإتقان: عند تأمل هذه الآداب نلاحظ أنها جملة من القواعد الصارمة،
والنظم الدقيقة، التي تضبط العملية التعليمية، وترقى بها، وتحميها من الزلل والانحراف. فقد
حدد المحدثون السن المثلى لطلب العلم والقدرة على الاستيعاب وممارسة التعلم، ما يمكن أن
نسميه بمصطلح العصر (سن التمدرس)، ولقد وفقوا أيما توفيق في تحديد سن الأمتل
بخمسة سنين، أو سبع، وأغلب النظريات التربوية الحديثة لا تخرج عن هذا التحديد.

فقد نقل القاضي عياض، أن أهل الصنعة حددوا أول زمن يصح فيه السماع للصغير
بخمسة سنين، ونسبه غيره للجمهور. قال ابن الصلاح: وعلى هذا استقر العمل بين أهل

1 - انظر تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم المتعلم، ص 82-85.

2 - انظر من أدب المحدثين في التربية والتعليم، ص 15.

من معالم المنهج التربوي عند المحدثين ----- د. أبو بكر كافي
الحديث، فيكتبون لابن خمس فصاعدا "سبع" وإن لم يبلغ خمسا "خضر أو أخضر" وحجتهم
في ذلك: ما رواه البخاري وغيره من حديث محمود بن الربيع، قال: عقلت من النبي صلى
الله عليه وسلم محجة مجها في وجهي، وأنا ابن خمس سنين، يوب عليه البخاري: متى يصح
سماع الصغير.

وحكى السلفي عن الأكثرين صحة سماع من بلغ أربع سنين بحديث محمود، لكن
بالنسبة لابن العربي خاصة، أما ابن العجمي، فإذا بلغ سبعا.
وقيل سبع سنوات: وذلك فيما رواه الحاكم عن القطيعي: قال: سمعت عبد الله بن
أحمد يقول: سمعت أبي سئل عن سماع الصبي، فقال: إن كان ابن عربي فابن سبع وإن كان
ابن عجمي فإل أن يفهم.

وبعضهم قيده بالسبع مطلقا، وقد روى عن الربيع بن سليمان أن الشافعي سئل عن
الإجازة لمن له سبع سنين، فقال: "لا تجوز الإجازة لمثله حتى يتم له سبع سنين" وإذا كان
هذا في الإجازة، ففي السماع أولى.

وقيل ثلاث عشرة سنة: حكاه الخطيب البغدادي عن قوم منهم يزيد بن هارون. وقيل
خمس عشرة سنة: وقد حكاه الخطيب أيضا عن قوم منهم يحيى بن معين وقد ذكر لأحمد أن
رجلا قال: لا يجوز سماع الصبي حتى يكون له خمس عشرة سنة لأن الرسول صلى الله عليه
وسلم رد البراء وابن عمر استصغرها يوم بدر، فأنكر قوله هذا، وقال: «بئس القول، كيف
يصنع بسفيان ووكيع ونحوهما، أي أن هؤلاء سمعوا دون هذه السن.

وهذه الأقوال الأخيرة ضعيفة عند المحققين من أهل الحديث، قال ابن الصلاح رحمه
الله "والصواب اعتبار التمييز فإن فهم الخطاب، ورد الجواب كان مميزا صحيح السماع،
وإن لم يبلغ خمسا وإلا فلا، وإن كان ابن خمس فأكثر ولا يلزم من عقل محمود الحجة في هذا
السن أن تميز غيره مثل تمييزه.

بل قد ينقص عنه، وقد يزيد، ولا يلزم منه أن يعقل مثل ذلك وسنه أقل من ذلك ولا

من معالم المنهج التربوي عند المحدثين ----- د. أبو بكر كالي
يلزم عقل المحقق عقل غيرها مما يسمعه"¹.

والذي اختاره ابن الصلاح هو التحقيق في المسألة، وقد وافقه عليه أغلب الأئمة كالقسطلاني في كتاب المنهج حيث قال: "ما اختاره ابن الصلاح هو التحقيق والمذهب الصحيح. ووافقه عليه النووي في التقريب، والسيوطي في التدريب، والحافظ السخاوي في فتح المغيث وغيرهم.

كما ابتكر المحدثون نظاماً خاصاً لتسجيل الحضور والغيابات والمواد المدروسة، وذلك بتسجيل أسماء الحاضرين، والتاريخ، والوقت، واسم الشيخ ولقبه وكنيته، والكتاب المسموع، والخصم الفائتة منه (الفواتات) في سجلات خاصة تعرف بالطباق، مما يعدّ من سبق تربوي لما يعرف اليوم بسجلات حضور الطلبة وكشوف الغيابات، ويعتمد المحدثون على الطباق في إثبات السماع للطلبة مما يخولهم الحق في رواية الكتاب المسموع.

ذكر الخطيب الحافظ: أنه ينبغي للطالب أن يكتب بعد البسملة اسم الشيخ الذي سمع الكتاب منه، وكنيته ونسبه، ثم يسوق ما سمعه منه على لفظه. قال: وإذا كتب الكتاب المسموع فينبغي أن يكتب فوق سطر التسمية أسماء من سمع معه، وتاريخ وقت السماع، وإن أحب كتب ذلك في حاشية أول ورقة من الكتاب، فكلا قد فعله شيوخنا².

قال ابن الصلاح: "وكتبة التسميع حيث ذكره أحوط له وأخرى بأن لا يخفى على من يحتاج إليه، ولا بأس بكتبه آخر الكتاب، وفي ظهره، وحيث لا يخفى موضعه.

وينبغي أن يكون التسميع بخط شخص موثوق به، غير مجهول الخط، ثم إن على كاتب التسميع التحري والاحتياط، وبيان السامع والمسموع منه بلفظ غير محتمل، ومجانبة التساهل فيمن ثبت اسمه، والحذر من إسقاط اسم واحد منهم لغرض فاسد. فإن كان مثبت السماع

1- علوم الحديث 164

2 - انظر علوم الحديث 182.

من معالم المنهج التربوي عند المحدثين ----- د. أبو بكر كافي
غير حاضر في جميعه، لكن أثبتته معتمدا على إخبار ومن يثق بخبره من حاضريه، فلا بأس
بذلك إن شاء الله تعالى¹.

بل اعتبر المحدثون السماع حق معنوي من حقوق طالب العلم فمضى منع منه له أن يرفع
أمره إلى القضاء، وفي ذلك يقول ابن الصلاح:

"ثم إن من ثبت سماعه في كتابه فقيح به كتمان إياه، ومنعه من نقل سماعه ومن نسخ
الكتاب، وإذا أعاره إياه فلا يبطئ به. روينا عن الزهري أنه قال: إياك وغلول الكتب، قيل
له: وما غلول الكتب؟ قال: حبسها عن أصحابها. وروينا عن الفضيل بن عياض رضي الله
عنه أنه قال: ليس من أفعال أهل الورع ولا أفعال الحكماء: أن يأخذ سماع رجل وكتابه،
فيحبسه عنه، ومن فعل ذلك فقد ظلم نفسه.

فإن منعه إياه: فقد روينا أن رجلا ادعى على رجل بالكوفة سماعا منعه إياه، فتحاكمها
إلى قاضيه حفص بن غياث، فقال لصاحب الكتاب: أخرج إلينا كتبك، فما كان من سماع
هذا الرجل بخط يدك ألزمتك، وما كان بخطه أعفيناك منه. قال ابن خلاد: سألت أبا عبد
الله الزبيري عن هذا، فقال: لا يجيء في هذا الباب حكم أحسن من هذا، لأن خط صاحب
الكتاب دال على رضاه باستماع صاحبه معه. قال ابن خلاد: وقال غيره: ليس بشيء.
وروى الخطيب الحافظ أبو بكر عن إسماعيل بن إسحاق القاضي: أنه تحوكم إليه في ذلك،
فأطرق مليا، ثم قال للمدعى عليه: إن كان سماعه في كتابك بخطك فيلزمك أن تعيره، وإن
كان سماعه في كتابك بخط غيرك فأنت أعلم².

كما ابتكر المحدثون نظاما للإجازة، يتم من خلالها منح الطالب المتأهل حق رواية كتبها
خاصة عن الشيخ، والجدير بالذكر أن كلمة "ليسانس" التي تستعملها حل الجامعات

1- علوم الحديث 164-165.

2- علوم الحديث 183-185.

من معالم المنهج التربوي عند المحدثين ----- د. أبو بكر كافي
والمعاهد الحديثة، كشهادة علمية، تدل على مستوى عال من التعليم، هي ترجمة لاتبين
لكلمة الإجازة المستعملة عند المحدثين خصوصا، وعلماء المسلمين عموما.

كما حدد المحدثون السن الأمثل للمعلم لممارسة التعليم بكفاءة، كما حاولوا تحديد السن
التي يتوقف عندها المعلم عن التعليم لما يخشى منه على أدائه العلمي، وهي أشبه بحد كبير
سن التقاعد التي تعتمد على نظم العمل في كل الدول المعاصرة، مع العلم أن هذه السن قد
تستمر بالنسبة لكبار الباحثين إلى السبعين أو الثمانين، أو إلى الموت، طالما هناك عطاء علمي
متجدد.

هذه نماذج تدل على العقلية العلمية المنظمة التي كان عليها المحدثون خصوصا، وعلماء
المسلمين عموما، وهي تدل أيضا على السبق الذي حازه المسلمون في العلوم التربوية
والبيداغوجيا وطرائق التدريس، فهذه العلوم إسلامية المنشأ، وقد عرفها أسلافها وطبقوها
أحسن تطبيق، مما أثمر حضارة من أروع الحضارات، ولكن كثيرا من المهزومين يظنون أن
الفضل كله للغرب في هذه العلوم، فالواجب العلمي يحتم علينا أن نبرز هذه الجوانب في
أبحاث علمية أكاديمية تعتمد على التحليل والنقد والمقارنة لما ذكره علماءنا منذ قرون، وما
وصلت إليه أحدث النظريات العلمية في هذا المجال، وهذا ميدان خصب، وحقل بكر،
يحتاج إلى تضافر الجهود من علماء الشريعة محدثين وفقهاء وعلماء النفس والتربية لتحقيق
الهدف المنشود.